بين الرحلة الشعرية والنثرية أهم المميزات وأبرز الاختلافات

Between the poetic and prose journey

The most important features and the most prominent differences

هند تمار *

جامعة غرداية، كلية الآداب واللغات

hind.temmar@gmail.com

عاشور سرقمة

جامعة غرداية، كلية الآداب واللغات

sergmaachour@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/09/28 تاريخ القبول 2021/12/22 تاريخ النشر 2021/12/31

ملخص:

تقف الرحلة في مواطن كثيرة على أنها مستقلة بشخصيتها الأدبية، متميزة بخصائصها، وهذا ما يجعلها جسدا معترفا به في عرف الثقافة العربية، ومن المعلوم أن العمل الفني الذي يحمل الرحلة موضوعا؛ قائم على خطاب ونص يجليان حدثا أو موضوعا يتعلق بحكاية أو سفر، ويعتبر النص الرحلي بنية تستوعب جل الأشكال والمضامين فيمتزج فيه الفصيح بالعامي، والعلمي بالأدبي والسردي والوصفي؛ ولهذا فإن النص الرحلي لا يخلو من جملة من العناصر وان لم تتوفر جميعها، حيث تُدوّن بأسلوب يغلب عليها الطابع

* المؤلف المراسل

المحدد للرحلة، مُعتمدة على مجموعة من المكونات والعناصر، وفق صياغات أدبية وفنية وجمالية.

ولئن آثر جل الرحالين استخدام النثر في وصف رحلاتهم لما له من مميزات لا تتوافر لنظيره الشعر، فإن عددا منهم اعتمد الشعر وسيلة للتعبير عن رحلته، ونحن في هذه الدراسة نسعى للكشف عن العناصر الفنية الأساسية التي تساهم في تشييد معمار الخطاب الرحلي، التي تكفل تماسكها، حيث نحاول كشف وإبراز هذه العناصر والتي تعد مناط الاختلاف والاتفاق بين الرحلتين الشعرية والنثرية، معتمدين على مجموعة من الأدوات الإجرائية منها؛ الوصف والاستقراء والتحليل.

الكلمات المفتاحية: الرحلات النثرية، الرحلات الشعرية، العناصر الفنية، الشكل الفني، اللغة والأسلوب

***Abstract* :**

The excursion presents in several contexts an independent field by its literary aspect, it is distinguished by its characteristics, a fact which makes it a body recognized in the Arab culture, knowing that the artistic work that the excursion carries as subject is carried on a speech or text that tells a fact or a subject relating to a story or a journey. Thus, a text of the excursion represents a structure which comprises most of the forms and contents in which the classical and the dialect, the scientific and the littéraire, the narrative and the descriptive are articulated. Therefore, a text of the excursion does not lack a set of elements - even if they do not all exist - which are structured according to a style influenced by the determined aspect of the excursion, in s " relying on components and elements, according to literary, artistic and aesthetic styles.

The impact of most travelers is the use of prose in the description of their excursions since it has specificities that do not exist in the poetic form, which is why most travelers have considered poetry as a medium. expression to recount their journeys. In this study, we try to unveil the

basic artistic elements which intervene in the construction of the discourse architecture of the excursion, which ensure its consolidation, our ambition is to emerge these elements which serve to show the agreement and the disagreement of both poetic and prose excursions, relying on a set of analytical tools, namely: description, extrapolation and analysis

key words: prose excursion, poetic excursion, artistic elements, artistic form, language and style **.**

مقدّمة:

يعد أسلوب الرحلة أهم ما يميز الخطاب الرحلي ويدرجه ضمن دائرة الأدب، حيث يتفاوت بتفاوت الرحالين، وملكاتهم اللغوية، وقرائحهم الإبداعية، والتعبير الأدبي الهجين المكون أساسا من عديد الفنون الأدبية والعلوم المختلفة، وقد حاول الرحالون استخدام الأسلوب القصصي «وعالجوا به قضايا تتطلب مثل هذا الأسلوب والذي يؤثر في وجدان المتلقي»[1].

ولأن الخطاب الرحلي يتوافق واختلاف الرحالين، ومشاربهم ومجالات اهتمامهم، وأساليب تعابيرهم؛ لما يتمتع به من مرونة عالية ومضمون واسع، ما جعله يكتب وفق نمطي الكتابة؛ شعرًا و نثرًا ولابد في كليهما من أن يحتويا خصائص أدب الرحلة، إلا أنهما يتقاطعان ويختلفان في التفاصيل المشكلة والمميزة لكل عنصر من عناصر الخطاب الرحلي، كما يشتركان ويتلاقيان في نقاط عدة.

ورغم اعتماد جل الرحالين النثر في وصف رحلاتهم «لما له من مميزات لا تتوافر لنظيره الشعر، ورغم أن الشاعر قد يصف رحلته أحياناً، فإن عمله يكون عارضاً، وربما خياليا. إن النثر يتيح للرحال حرية الوصف والحركة دون قيود أو معيقات، لذا فإن استخدامه يصبح مبررًا بل ضروريا، كما أن النثر أداة تواصل بين الشعوب عكس الشعر الذي يفقد أهم خصائص حين يترجم ... قيمة النثر في الأفكار التي يحملها، وقيمة الشعر في كيفية أدائه»[2].

وفي مقابل هذا فقد اعتمد قلة قليلة من الرحالين الشعر وسيلة للتعبير عن رحلاتهم الحجازية الحجية، وتكتب الرحلات الشعرية في شكل قصائد مطولة، مكتوب بعضها بالشعر الفصيح والبعض الآخر بالشعر الشعبي أو الملحون «ومما كتب بالفصيح قصيدة محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني التي فرغ منها سنة 1152م، كما نظم عبد الرحمن بن "محمد بن الخروب المجاجي" قصيدة مطولة فصيحة سنة 1063م، أما من الشعر الملحون فنذكر قصيدة "محمد بن مسائب التلمساني" في القرن الثاني عشر»[3].

وتتشكل الرحلة أساسا من عناصر أساسية تشكل الخطاب الرحلي، فالرحال المتميز الذي يجيد وصف رحلته لابد أن يحقق كافة العناصر الفنية التي تكفل تماسكها، وهذه العناصر الأساسية هي مناط الاختلاف والاتفاق بين الرحلين الشعرية والنثرية ونذكر منها:

1- البنية الشكلية:

يتميز كل جنس أدبي عن آخر بشكل يمثل قالبا فنيا خاصا به، وهذا سبيل جنس الرواية، والقصة والمسرحية والشعر وغيرها من الأجناس الأخرى التي تعتمد بناءاً فنيا تاماً لا تتم ولا تتشكل إلا من خلاله، ولعل هذه الصرامة الشكلية التي يفرضها قانون الأجناس الأدبية لا تجد لها سبيلاً في الرحلة والتي تقف عاجزة أمام وضع شكل صارم مقيد يحدد شكلها نظراً لمضمونها المتعدد والمتجدد والذي اكسبها مرونة احتاجت فيها إلى أشكال وأنماط كتابة مختلفة.

إن المنطلق والمبدأ الرئيسي للاختلاف بين الرحلتين يكمن أساساً في نمط الكتابة والذي بدوره يحقق البنية الشكلية الخارجية للرحلة؛ فتدون الشعرية منها على شكل قصيدة عمودية تحمل خصائص الشعر العمودي التقليدي وتتميز بطولها، قصيدة خاضعة لنظام الوزن، حيث تكتب وفق بحر من البحور الخليلة، معتمدة على القافية والروي الواحد في كل القصيدة، التي تنعت وتسمى القصائد باسمه في كثير من الأحيان «كهمزية محمد بن منصور العامري التلمساني إضافة لرحلة القطب المنظومة في شكل قصيدة مطولة ضمت مئتين واثنين وثلاثين بيتاً(232) وفق بحر الطويل وروي الهمزة »[4].

أما الرحلات النثرية فتُدوّن في مؤلف خاص، في قالب نثري يصف فيه الرحال ما اعترضه في سفره ويعبر فيه عن إحساسه وشعوره تجاه المناظر والأماكن التي مرَ بها، ذاكراً أحوال أهلها معتمداً في ذلك على فنون وأجناس وعلوم عدة، وتعتمد الرحلات النثرية في جل دراسات ومؤلفات أدب الرحلة؛ كون النثر يعد الأسلوب الأساسي والعام في تدوينها؛ لما له من مرونة واتساع لمختلف أخبارها؛ كما يعد الأنسب للرحالين على اختلاف علومهم وثقافاتهم وقدراتهم اللغوية من علماء وفقهاء، إضافة إلى تشعب الرحلة ومواضيعها مما يتناسب مع النثر.

ومراعاة قارئ الرحلة أمر في غاية الأهمية؛ فالقراء على أصنافهم وطبقاتهم العلمية يستوعبون النثر حتما أكثر بكثير من الفئة التي تستوعب الشعر، فالشعر يستوجب علماً ودراية كبيرة بعلم العروض وتمرساً في نظم الشعر، وقدرة وملكة لغوية كبيرة للطرفين معاً الرحال والقارئ على حد سواء.

2- العنوان:

لا يخلو نص رحلي من عنوان يحيل إلى موضوعه وهدفه؛ سواء في القصائد الشعرية أو في النصوص النثرية؛ حيث يشكل بنية لغوية مشحونة الدلالة ممثلة لفكرة النص؛ لذا فهو يعد مفتاحا له، لما يتشكل بينهما من علاقة وطيدة، ويتمثل العنوان في وضع علامة مميزة ردءاً لكل التباس مع نصوص أخرى فكل دراسة للخطاب الرحلي أو غيره لابد أن تنطلق من العنوان «باعتباره العتبة الأولى التي تحاور المتلقي وتشير إلى جنس المؤلف، خصوصاً وأن عنونة كل شكل تعبيري تشكل مدونة تضمر بوحاً بجنس ذلك الشكل وتختزن مقصدية المؤلف وإدراكه للكتابة التي حررها كما تضم نداءً للقارئ ومرشداً له في آن»[5].

ويشكل العنوان صورة مصغرة وعلامة دالة على النص؛ فهو يدل على اتجاهه ومضمونه، ولذا فإن العنوان يشكل «شبكة متجذرة في قطبين: الأول لغوي يجسده النص ودلالته، والثاني نفسي تأويلي للمؤلف»[6]، ومن ذلك تتأسس الرحلات عبر عناوينها الموحية لما هو بين النص وعنوانه، ويعد«العنوان في الرحلة علامة إخبارية تقدم تلميحاً لمضمون المؤلف في

جملة أو جمل متعددة مرتبطة فيما بينها»[7]، ولهذا يعد عنوان الخطاب الرحلي رمزاً يحدد هويته عبر جملة من المكونات المنضوية تحت لوائه والتي تنطلق أساساً من فعل السفر والارتحال.

ويعد العنوان«مجموعة العلامات اللسانية التي يمكن أن تندرج على رأس نص تحدد على محتواه العام وتعرف الجمهور بقراءته»[8]، كل هذا جعله علامة فارقة ومائزة بين الرحلتين الشعرية والنثرية ومؤشرا دالا على نمط الكتابة في كل منها؛ فقد عرفت الرحلات النثرية مجموعة من الخصائص الضابطة والمميزة له؛ فمن العناوين التقليدية التي اعتمدتها الرحلات هي العناوين الطويلة المضمونية المسجوعة «وهي عناصر كانت لها شروطها التاريخية والثقافية؛ ذلك أن حضور المضمون والسجع في العنوان يستدعي ضرورة عنصر الطول، من أجل الوضوح والإغراء، واستيعابا لاتساع مضمون الكتاب»[9]، وكاشفا عن مضمون الرحلة.

فعنوان رحلة "القلصادي" (تمهيد الطالب، ومنتهى الراغب، إلى أعلى المنازل والمناقب) مكون من سبع كلمات تقف على دعامة أساسية وهي التعريف بالعلماء وخصالهم ومراتبهم، والمشكل أساساً من ثلاث جمل ذات جرس موسيقي، مسجوعة بحرف الباء، والشيء نفسه نجده في رحلة "ابن حمادوش" (لسان في النبأ عن النسب والحسب والحال) "ورحلة الورثلاني" (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، هذا وقد اعتمدت بعض الرحلات عناويناً رئيسية وأخرى فرعية تكون شارحة ومفسرة لها كما تعمل أيضا على إتمام وتدقيق أو تصحيح معلومة فيها.

ولعل هذا ماجعل العديد من دور النشر والمحققين يعمدون إلى اختصاره وإعطاء الرحلة عنواناً آخر بدلاً من العنوان الأصلي، والمتمثل أساساً في كلمة "رحلة " مضافاً إليها صاحبها "كرحلة ابن جبير" بدلاً من (تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار)؛ «نظراً لمباشرتها وخفَتها في النطق والتداول، أو يقصد تبئير المؤلف وتخصيص رحلته، حتى لا تلتبس مع نصوص أخرى، إضافة لتسهيل القراءة وتهيئ القارئ للنص الذي يعينه العنوان »[10]، كما يرتبط اسم الرحلة بالمكان كالرحلات الزيارية إلى الأماكن المقدسة أو الحج كالرحلة الحجازية أو الرحلة الحجية وهذا ينطبق على الرحلتين الشعرية والنثرية.

إن المميز لعنوان الرحلة الشعرية دلالته الصريحة والقاطعة على كتابة مضمونها شعراً، ويتميز أيضا عن الرحلة النثرية ببساطته واحتوائه في جل الرحلات الشعرية على لفظتين؛ الأولى من صميم الشعر ونوع من أنواعه، والثانية باسم المكان المنتقل والمتوجه إليه، كرحلة القطب أطفيش المعنونة باسم "القصيدة الحجازية والتي وضع لها المحقق عنواناً بديلا تمثل في "رحلة القطب"، ورحلة الوارجلاني الموضوعة تحت عنوان "القصيدة الحجازية" أيضا، ومن الرحلات الشعرية كذلك رحلة «أحد الملاحين المعروف بماجد والتي وضعها في مصنف ضخم سماه "الأرجوزة الحجازية »[11]، ولهذا فإن الدارس للرحلة يستشف مضمونها وآلية كتابتها انطلاقا من عنوانها.

3- مقدمة الرحلة: (خطاب التقديم أو الاستهلال)

يعد خطاب التقديم في النصوص الرحلية عنصرا بالغ الأهمية؛ حيث يتشكل من عناصر تمهيدية وأسسا متعلقة بالرحلة، نظرا لطبيعة النص الذي يحتاج بعض المعلومات والتوضيحات حول الرحلة ومسارها ليتفاعل معها القارئ بوصفها شكلا أدبيا مختلفا عن الجغرافيا والتاريخ، فهو يمثل عنصرا بنائيا وضرورة واجبة «فهي في هذا النوع ذات أهمية كبرى؛ لأنها ستكون بمثابة مفتاح أو كشّاف الرحلة الذي يفتح وينير مغالقها للقارئ»[12]، ويكون التقديم في الصفحة أو الصفحات الأولى من الخطاب الرحلي.

وتختلف المقدمة في الخطاب الرحلي النثري عنها في الشعري؛ فتكون في النثري إما مدمجة في النص الرحلي على غرار «نص ابن جبير الذي تندمج فيه المقدمة بالنص، بحيث يشير إلى التاريخ التقييد والمكان والقصد، ثم إلى الرحلة بشكل مباشر وكل ذلك متصل ومختزل»[13] وإما مستقلة في عنوان خاص، ومع هذا كله تبقى المقدمة مرهونة في حدود الكشف عما يجلب القارئ لا عما يفضح الخطاب الرحلي «وينهي عملية المتعة عن طريق كشف كل الأوراق مرة واحدة، ومن ثم تصبح الرحلة تحصيلا لحاصل، وتفقد صلتها بالقارئ وتأثيرها فيه»[14].

وتأتي المقدمات على ثلاثة أشكال:

أ- مقدمة مرتبطة بالنص الرحلي تذكر أسباب ودواعي الرحلة، و«بعض المواضيع أو الموضوع المهيمن وهو مرتبط بخارج النص، وظروف تكونه أكثر من ارتباطه بداخل النص وفي هذا الإطار تجيء رحلات "العبدري" وابن بطوطة" للتعبير عن مثل هذه المقدمات»[15].

ب-مقدمات تقدم ملخصا للرحلة، «بالإضافة إلى أقسامها على غرار ما فعله "عبد الغني النابلسي" في رحلته (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجز)، وترتبط هذه المقدمات بالنص بشكل مباشر من حيث عرض مضامينه»[16] وقد تأتي المقدمة في سبع وعشرين صفحة مثل رحلة"يوسف ابن عابد الفاسي" (ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضرموت)، وهي مقدمات تقليدية وهو استهلال نمطي سائد في معظم النصوص الرحلية القديمة.

ج-مقدمات تبدأ بالبسملة يسعى الرحال «من ورائها إلى توجيه المتلقي إلى قراءة معينة باعتقاد معين»[17]، كما فعل القلصادي حيث جاءت مقدمته تقليدية مقسمة إلى ثلاثة أقسام (فقرات)؛ فقد افتتح خطابه الرحلي بالبسملة والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، يليها ذكر اسمه الكامل، لينتقل بعد ذلك إلى وضع المقدمة في عنوان خاص تجسدت فيها البداية بالحمدلة وشكر النعم وكل ما يوحي بعملية السفر ودافعه، افتتحها بحمد الله تعالى لجعله العلم واجبا وفرض الحج على المستطيع من المؤمنين مستدلا في كليهما بآيات من القرآن الكريم ثم ليشكره الله على نعمه وجزيل إلا أن ينتقل الرحال فيها دون أن يشعر القارئ بأي نفور.

أما في القسم الثاني من المقدمة فبدأه بالصلاة على الرسول الكريم بجميل صفاته وخصاله صلى الله عليه وسلم، ثم لينتقل بعدها للغرض الأساسي من هذه الرحلة ألا وهو التعريف بشيوخه ثم ذكر بلد انطلاق رحلته (بسطة) واسم الرحلة الكامل.

وفي القسم الثالث منها دعا الله جلّ وعلا التوفيق والإصابة في المقصد، ثم الاعتذار عن كل تقصير أو نسيان والذي يعد من صفات البشر، وقد وردت المقدمة بعبارات مسجوعة

منمقة، تضمنت أساسيات المقدمة في الخطاب الرحلي النثري من دافع الرحلة واسمها الكامل والدلالة على فضله.

أما المقدمة أو المطلع في الخطاب الشعري فهي مختلفة تماما؛ حيث يكتفي الرحالون فيها بحمد الله تعالى ثم ذكر دافع الرحلة ألا وهو أداء مناسك الحج في جلها، كما يسجلون عواطفهم المتأججة وعظيم شوقهم لأداء مناسك الحج وزيارة الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم، والمدينة المنورة والتبرك بترابها وهوائها، هذا وقد أضاف بعضهم يوم وزمن الخروج والانطلاق في الرحلة دون ذكر مفصل للشهر أو السنة، ويقول القطب في مقدمة رحلته:

«هجرنا مسقط الرؤوس وما نرى   سوى الحج إنّ الحج قد حان أن يرى
وغير اعتمار والزيارة للنبي   عليه الصلاة والسلام زها الثَّرى
فلله حمدٌ حمد فإن لذي البقا   وحمد فقير للغني عن الورى
خرجنا بضحوة الخميس بمثل ما   خميس، ونحن في خلاء عن المِرَا»[18]

وتتسم الرحلات الشعرية بوصفها الأحاسيس الدينية والروحية أثر منها في النثرية في هذا يقول: «عبد الله بن عمر البسكري في مطلع قصيدته:

دار الحبيب أحق أن تهواها   ونحن من طرب إلى ذكراها»[19]

وتتعدد صيغ المقدمات وفق الدوافع والموضوعات، ومن هنا «أعتبر التقدير في النصوص الرحلية ضرورة وجبة أكثر منها في الأشكال الأخرى نظرا لطبيعة النص الذي يحتاج إلى تقديم بعض المعلومات والايضاحات حول الرحلة أحيانا لتبريرات معينة»[20].

ومن هنا يبرز الاختلاف الجوهري بين المقدمة في الخطاب الرحلي الشعري والنثري؛ فالنثرية أكثر تفصيلا واتساعا، فتزيد عن الشعرية بإيراد اقتباسات من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وهذا لا يمكن في الشعر، إضافة لإيرادها العنوان الكامل للرحلة في حين لا تحمل الشعرية عنوانها ضمن المضمون أبدا.

كما تتنوع أهداف أغراض الرحلات النثرية المذكورة في مقدماتها؛ في حين أن الشعرية لها غرض واحد ألا وهو الحج والعمرة وكل شاعر يبرز حبه وشوقه لهما ولأرض الحجاز، وتختلف أيضا في الطول فلا تزيد المقدمة الشعرية عن الأربع أو الخمسة أبيات ليبدأ مباشرة بذكر مكان انطلاق الرحلة؛ بيد أن النثرية مختلفة من رحلة لأخرى ومن صفحة إلى عشرين صفحة.

وفي كل الأحوال تبقى المقدمة في الخطاب الشعري أو النثري «مرشدة فحسب، ولذلك يستحسن أن تكون قصيرة لأن القارئ يكون متشوقا لمعرفة تفاصيل الرحلة»[21]، فهي دليل يفتح الباب أمام القارئ ويتركه في متعة الكشف عن مجاهيل النص، ويختلف الاستهلال وفقا لدوافع الرحلة وبهذا تمتاز الرحلات بصيغ استهلالية عديدة ومتنوعة حسب ضروب الرحالين ومشاربهم.

4- اللغة والأسلوب:

يتجسد الخطاب الرحلي باعتباره نصا واعيا، يأخذ القارئ في حسبانه، ويعتبره طرفا رئيسيا في العملية الإبداعية؛ ولهذا فلابد للرحال من مراعاة اللغة والأسلوب الأدبي الذي يرغِّبان في النص أو عنه، ويكشف خطاب الرحلة عن أسلوب الرحال وبراعته ومدى استيعابه لآليات الابداع والخصائص الفنية للفنون الأدبية المختلفة.

يمتاز الخطاب الرحلي بمرونته تسمح له بضم توليفة من الأجناس الأدبية والعلوم الأخرى، ولذا هو مشكل أساسا من تداخل وتمازج كثير من الأنماط وعديد من الأقلام القديمة والحديثة، المعروفة والمغمورة، منها ما يرتقي إلى مصف المبدعين ومنها من لا يتجاوز في تعبيره حد المقرر، وهي المزية التي يمنحها النص الرحلي لكافة الشرائح ولا تتاح في نصوص أدبية أخرى.

وتتمتع الرحلات بعناصر فنية ذات خصائص أسلوبية وصياغة بلاغية تتشكل وتتجسد في وصف الرحال للبلدان وذكره أحوال أهلها والحوادث التي جرت فيها، معتمدا في ذلك على شتى أنواع البيان والبديع، بلغة بسيطة وأسلوب مشوق، ولذا عدّت اللغة والأسلوب

من أهم العوامل والخصائص التي أخرجت الرحلة من دائرة الجغرافيا والتأريخ إلى دائرة الأدب؛ ويتراوح أسلوب الرحلات ويختلف بتراوح الرحالين أنفسهم في مجاراتهم لملكاتهم اللغوية وقدراتهم التعبيرية والإبداعية، ومرد ذلك أن «صلة وثيقة بين أدب الرحلات والجمهور»[22]؛ ويراعي فيها الرحال بوعي بالغ العلاقة الرابطة بين السارد والمسرود له، فالرحال يرمي لتفاعل الجمهور مع الأحداث التي عاشها أثناء رحلته وهذا بمحاولته البالغة تقريب الصورة قدر المستطاع ولهذا كان الأسلوب السهل البسيط للخطاب الرحلي.

وتكتب الرحلة النثرية بلغة العصر، لذا تعد مرآة عاكسة لثقافة العصر ومستواه، كما أن اختلاف مجالات ومستويات الرحالين، وتشعب الأحداث والأخبار في الرحلة يجعلها تتلاءم واللغة البسيطة والأسلوب العلمي، بل وتتخلل اللغة الفصيحة عديد من الألفاظ العامية التي ينقلها الرحال كما هي تارة، ولعجزه عن الإتيان بمرادفتها من الفصحى تارة أخرى.

واللغة البسيطة ذات الألفاظ المتداولة لا تعيب الرحلة؛ وذلك لاختلاف الدارسين والمهتمين من مؤرخ وجغرافي وبيولوجي تارة، ولمدى اهتمام وتضلع الرحال في اللغة تارة أخرى، فالرحلة ليست كالأجناس والفنون الأدبية الأخرى التي تستوجب ملكة لغوية وأسلوبا شيقا في السرد وقارئا متذوقا.

ولأن القلصادي عالم متمكن من اللغة وعلومها، وبارع في العلوم العقلية، كما أنه ارتحل في طلبها واهتم بالعلماء فيها؛ فقد وردت رحلته بأسلوب علمي توخى فيه الإيجاز، ولغة فصيحة متداولة طغى عليها السجع الذي لا يعتريه تكلف ثقيل في الغالب، و«ظاهرة السجع تتجلى في كثير من المواطن الأخرى من مؤلفات القلصادي كما نراها في أغلب العناوين التي اختارها لمؤلفاته»[23]، كما كان دقيقا في التعبير حيث ينفذ للغرض مباشرة ومما جاء في رحلته قوله :«ومن ذا الذي ترضى سجاياه، أو تحمد عطاياه؟، والصارم قد ينبو، والنار قد تخبو، والإنسان محل النسيان وإن كان نازلا عن درجة التأليف، أو منحطا عن رتبة التصنيف»[24]، وبهذا الأسلوب واللغة المسجوعة وردت جل أخباره وأوصافه وتراجمه.

وتتميز رحلة القلصادي بدقة لفظها؛ فاستعمل فيها ألفاظا بليغة مثل «سوابغ، شآبيب، نافقة، الوخامة، المنيفة»، وعمق دلالتها فيختار من المترادفتين الأقرب دلاليا كاستعماله لفظتي "عالية" تعظيما لقدر الشيخ وتعبيرا عن مكانته ولفظة "سامية" للدلالة على سمو مرتبته العلمية.

والدارس لرحلة القلصادي يلحظ ثراء ألفاظها وتنوعها وارتقاءها إلى مستوى المعاني، ورغم أن القلصادي نهل من المراكز العلمية والثقافية الشهيرة في المغرب والمشرق وتشبع بها إلا أن ألفاظه كانت مألوفة متألقة لا تصعب على القارئ ولا تشرد به في متاهات الغرابة، مفهومة القصد واضحة المعاني، خفيفة سهلة النطق متلائمة الحروف يسهل على القارئ نقطها وهذا دليل على مدارسته كتب العرب ومزاولته أساليب البلغاء، وامتلاكه الذوق السليم الذي مكّنه من اختيار الألفاظ.

ولما كان أدب الرحلة نصا يتميز بهيكل نمطي ونسيج محتمل، فإنه لا تتلاقى جميع الرحلات في محتوى واحد، بل تخضع لأحداث الرحلة ومجرياتها ومنها تستمد أغراضها الفنية من وصف ومدح وغيرها، ويكون وصفها دقيقا ذا بلاغة راقية وتصوير فني بديع، وتتسم الرحلة الشعرية بأسلوبها الأدبي وقوة عباراتها وجزالتها والتي تحتاج في كثير من الأحيان إلى معاجم وقواميس لشرحها منها ما أورده القطب أطفيش في رحلته «العبوترا، الزبنترا، الحبيكرى، احترا، ابترا، سفنطرا، إزورا، اقترى، انبرى»، عكس الرحلات النثرية التي تتميز ببساطة مفرداتها وتداولها، ولابد لنظم الشعر من التمكن من قواعد النحو والصرف والبلاغة وهذا ما يبدو جليا في الرحلات الشعرية.

وإن كانت الغاية في جل الرحلات الشعرية دينية خالصة؛ إلا أن خطابها يحمل قيمة لغوية وأدبية فالقصيدة تعد من البدائع الأدبية التي يعنى بلفظها وتنميقها اللغوي، فهي تحوي أغراضا شتى من الشعر الذي يستل من ظروف الرحلة وحيثياتها؛ منها الوصف والمدح والرثاء وغيرها، كما نجدها مشحونة بألفاظ الورع والدين، وحب البقاع المقدسة.

وهذا الشعر باحتوائه على هذه الألفاظ والعبارات «لا يضاهيه في نظرنا أديب إلا شعر الرعيل الأول من الشعراء أمثال امرئ القيس وأبي تمام والبحتري وغيرهم»[25]، ولابد أن يتوافق اللفظ والفكرة والمعنى مع موسيقى القصيدة الداخلية والخارجية، ومن الظواهر البلاغية رحلة القطب نجد التصريع في قوله:

هَجَرْنَا مَسْقَطَ الرُؤُوسِ ومَا نَرَى سِوَى الحَجّ إنَّ الحَجَّ قَدْ حَانَ أنْ يُرَى
فَلِلَّهِ حَمْدٌ حَمْدٌ فَإِنَ لِذِي البَقَا وَحَمْدُ فَقِيرٍ للغَنِّي عَنِ الوَرَى »26

ولابد أن تنظم علاوة على ذلك وفق قافية وروي القصيدة، فتنتهي الكلمات الدلالية الموافقة للمعنى بحرف الروي وهذا ما لا يهتم به البتة كاتب النثر، ومن خصائص الشعر عموما والرحلات الشعرية خصوصا تكثيف المعنى والتعبير عنه بألفاظ محددة بإيجاز ودون إطناب أو تكرار مثل مدح القطب أطفيش رفيق رحلته الشيخ عمر بن حمو قائلا:

وَفِينَا فَتَى الفِتْيَانِ أَشْجَعُ مَنْ أَرَى وَأَصْدَقُهُمْ حُبًا وَأَيقَظُ مِنْ سَرَى
وَأَثْقُبَهُمْ ذِهْنًا وَأَطْوَلُهُمْ يَدَا وَمَجْرَى أَبِيهِ فِي شَمَائِلِ جَرَى
ألاَ إِنَهُ ابْنُ السيد المُنْتَخَى عُمَرُ تَعِيلُ مَرَتَينِ للخَيْرِ مَصْدَرًا»[27]

أما الرحلات النثرية فتتميز بالشرح والتفصيل وإيراد المعنى والتعبير عنه بأشكال عدة وبعبارات متعددة وبأكثر من لفظ، هذا وقد يعمد الرحال في أحيان كثيرة إلى تكرار المعنى والعبارات متى تكرر الموقف، وفي بلدان مختلفة ومع أشخاص مختلفين كقول القلصادي في حديثه ومدحه الشيخ "محمد بن مرزوق" قائلا: «وأولاهم في الذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا: سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي رضي الله عنه، حل في كنف العلم والعلاء، وجل قدره في الجلة والفضلاء، قطع الليالي ساهرا، وقطف من العلم أزاهرا، فأثمر وأورق، وغرب وشرق، حتى توغل في فنون العلم واستغرق، إلى أن طلع إلى الأبصار هلالا، لان المغرب مطلعه ورسما في النفوس موضعه

وموقعه، فلا عليك أن ترى أحسن من لقائه، ولا أسهل من إلقائه، لقي الشيوخ الأكابر، وبقي حمده متعرفا من بطون الكتب وألسنة الأقلام وأفواه المحابر»[28].

5- الوصف :

يعد الوصف مكونا أساسيا في الخطاب الرحلي وخاصية من خصائصه المحددة والمشكلة لكيانه والتي تميزه عن غيره من النصوص والفنون السردية الأخرى، ويمتلك النص الرحلي مدونة وصفية تمثل الجهاز الذي يحرك الصورة ويرسم أفقها، كما يعد مبدأ أساسيا في الخطاب الرحلي، حيث يكتسب قيمة متأتية من كونها تصور لنا تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه والانطباعات التي تركها في نفسه «والوصف يجب أن يوازن بين شخص الرحال من ناحية والرحلة كموضوع من ناحية أخرى، دون التركيز على طرف واحد قد يؤدي إلى التردي في شرك العاطفة المسرفة أو الجفاف التام»[29].

وتنطلق العناصر الأساسية التي يعتمدها الوصف في «بناء النسق الجمالي للصور في الرحلة من العين واللغة، تجمعها شبكة عمليات يترتب فيها المرجع الواقعي والذاتي والثقافي... إلى جوار الخلفيات والتأثيرات المستحكمة في النسق اللغوي، ومن ثمَّ فكلما كانت الأوصاف ثرية بحمولتها المعرفية وأسئلتها القادرة على النفاذ إلى كُنْه الصور والموصوفات، استطاعت أن تغذي مخيلة المتلقي وتجعل التواصل مستمرا»[30].

وتندرج المشاهدات التي يراها الرحال ويسمح بها ضمن الذاكرة، فهي المادة الأولية التي تختزن في الذهن وتتفاعل مع استلهامات وتخيلات وصور مسبقة عن الأشياء، «فتتشكل الصورة التي تجيء مخصبة وثرية حينا، وجافة تقريرية وباهتة حينا آخر»[31]، ولا تقف مساهمة الوصف في بناء الصورة كما هي في الوقع وإنما تعكس الآثار النفسية.

وتناول الأماكن والمعالم والحديث عنها فإنه وإن كان المكان حقيقيا؛ فإن الرحال يمزج وصفه له بما يحمل من نزوع عاطفي وثقافي وأيديولوجي؛ وهذا ما يميز العمل الفني، ويجعل تفاصيل الرحلة تختلف من رحال لآخر، ويبقى الاختلاف في«وجهات النظر وميول الخواطر وطرق الاستنباط والتحري ولو كانت في زمن واحد ومكان واحد كرحلات الحج مثلا»[32].

وتستأثر بالرحال دهشة عند رؤيته لمكان أو معلم، فيعمد حينها إلى وصفه ورسمه، لتتشكل منها صورة، والأوصاف في الرحلات الحجية تندرج ضمن «إطار مادي مجرد ينصب على الذات والحنين والتذكر والأهداف الدينية، والعلم والعلاقات والأفكار، والقيم ووصف ملموس يتعلق بالصور الأخرى الواردة وتقترب في العموم من الطريق والعمران والأشخاص ومن تقديم الآخر»[33] في الرحلات النثرية والشعرية.

وقد أبدعت قرائح الشعراء وصفا احتفى التراث العربي بروائع منه ظلت خالدة إلى اليوم مساهمة في ازدهار الوصف أيّما ازدهار، دقة وبراعة رغم عديد القصائد التي كتبت لمناظرها؛ إلا أنها لم ترتق إلى مصافها كسينية البحتري في وصف إيوان كسرى، وقد ارتقى الوصف في كثير من أعمال الرحالة وبلغ حدا كبيرا من الدقة؛ إلا أنه في الرحلات النثرية كان أدق وأكثر إبرازا للتفاصيل وللنسق الجمالي في الرحلة؛ وهذا راجع لسببين اثنين أولهما: اهتمام الرحال بإبراز أدق التفاصيل في وصف الأماكن والمعالم خصوصا التعبير عن طول المكان ومساحته، وشدة علوه وارتفاعه، وذكره بالأعداد؛ لما للنثر من إمكانية للشرح والتفصيل وذكر الأرقام، كوصف القلصادي جزيرة جربة التونسية «ودائرة الجزيرة اثنان وسبعون ميلا وطولها ثمانية عشر وكذلك عرضها»[34] ووصفه سارية في مدينة الإسكندرية بمصر قائلا: «اكتلت في أحد جوانب القاعدة التي هي عليها عشرين شبرا وهي مربع متساوي الأضلاع»[35]، ولعل هذا ما لا يتسنى ذكره في الخطاب الشعري وإن كان فإنه يذكر في مكان أو اثنين لا في كل الأوصاف.

وثانيهما؛ أن كتاب الرحلات نثرا يعمدون في جلّ أوصافهم إلى تدعيم وصفهم للمكان بأبيات شعرية من روائع ما قيل فيه، فتكتمل صورة الوصف ويتحقق لها من الإبداع والجمالية والدقة ما لا يتحقق لها في النثر وحده، وتستوفي الصورة أبعادها شعرا ونثرا، فقد تشكل وصف القلصادي مدينة بسطة وفق النمطين النثري والشعري قائلا «بسطة سقى الله أرجائها المشرقة وأغصانها المورقة... دار تخجل منها الدور، وتقر لها بالقصور، مع ما حوته

من المحاسن والفضائل ولذلك قال فيها ابن الخطيب إنها محل خصيب... ولها من اسمها نصيب، إذ هي ينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام.

دار مشـــى الإتقـــان في تنجيـــدها   حـــتى تناســـب روضـــها وبنـــاؤه
مرموقـــة الجنبـــات ذات قـــرارة   يمقـــد قـــدام العيـــون فضـــاؤها
مـــازال يضـــحك دائـــم نوارهـــا   في وجـــه ســـاحته ويلعـــب ماؤهـــا»[36]

ولأن الخطاب نثري فقد اقتبس القلصادي قول العالم ابن لخطيب في وصفها وزاد على ذلك بأن ضمّن الوصف أبياتا شعرية زادت الوصف دقة فأبرزت عديد الجوانب فيها، وهذا ما لايمكن أن يكون في الشعر إلا في أحيان قليلة ولا بد فيه أن تتوافق والخصائص الشعرية للخطاب الرحلي الشعري، ويتميز الوصف المادي في الخطاب الرحلي الشعري بذكر أبرز الصفات التي يتميز بها المكان أو المعلم إضافة لتضمين الوصف ما يعتريه من شعور وما في الذهن من مخزون حول المكان، ويصف القطب مدينة "ينبع" قرب المدينة المنورة قائلا:

«فروحـــي مفـــروش بطيبـــة، والجســـد   إلى وجهـــة الينبـــوع أو وجـــه منـــورى
وذا اســـم في الســـن لنـــاس أصـــله   لعـــين كثـــير النبـــع جريـــا أو اعـــترا
علـــى وزن بنصـــر اسمهـــا فيهـــا مائـــة   وســـبعون عينـــا فهـــي مـــأوى لضـــيطرا»[37]

ولا يزيد وصف المكان في رحلته لقطب عن البيتين أو الثلاثة فيقول في مدينة جدة:

«وذلـــك أنهـــا طريـــق وســـيمة   مكـــة أو خـــط علـــى لـــون افـــترى»[38]

وقوله أيضا:

«وبحـــر الســـويس مـــن جبـــال تقطعـــت   مـــن البحـــر فوقـــه علـــى سمـــت منخـــرى
كمـــا أن بحـــر الـــروم الأبـــيض قطعـــا   لـــه جبـــل في الـــترك حيـــز فلـــورى»[39]

وحري بنا أن نشير إلى أن قلة الوصف للأماكن والمعالم التاريخية في رحلة القطب راجعة لكونه لم يطل البقاء في مكان بعينه لأيام عديدة ليتسنى له ملاحظة ما فيه وأهله ولم يكن كثير التجوال فيه.

خاتمة:

وتعتبر اللغة مكمن وجوهر الاختلاف بين الرحلتين الشعرية والنثرية، ووفقا لاختلاف نمط الكتابة تختلف البنية الشكلية الخارجية؛ فالرحلة الشعرية هي عبارة عن قصيدة شعرية عمودية منظومة وفق الشعر العربي التقليدي بكل خصائصه شكلا ومضمونا، ولغة وأسلوبا، ولهذا فهي لا تنظم إلا من عارف باللغة وأساليبها ومعانيها، أما الرحلة النثرية في مؤلف خاص، وفي كليهما تكون الرحلة غنية بالمواضيع، كثيرة الأخبار متنوعة الأوصاف، متعددة الأحداث والشخصيات والمواقف والآراء.

ولأن العنوان يشكل علامة دالة على النص ومميزة له، باعتباره العتبة الأولى التي تحاور المتلقي وتشير إلى جنس المؤلف، خصوصاً وأن عنونة كل شكل تعبيري تشكل مدونة تضمر بوحاً بجنس ذلك الشكل وتختزن مقصدية المؤلف وإدراكه للكتابة التي حررها كما تضم نداءً للقارئ ومرشداً له في آن واحد؛ فإننا نلمس اختلافا صارخا في عنوان كل من الرحلتين الشعرية والنثرية؛ فيكون في الشعرية بلفظ دال على الشعر كالأرجوزة أو القصيدة، في حين يتسم العنوان في النثرية بخصائص متعارف عليها في كتابة العنوان كالعبارات الطويلة والمسجوعة.

كما يختلف أيضا خطاب التقديم الذي لا يزيد في الشعرية عن الثلاثة أو الأربعة أبيات، في حين تختلف صيغه وعدد صفحاته في الرحلات النثرية.

الهوامش

[1]– عبد الله ركيبي ،الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1401هـ/ 1981م، ص: 689.

[2]- ناصر الموافي ، الرحلة في الأدب العربي، دار النشر للجامعات المصرية، جامعة القاهرة، ط1، مصر، 1415هـ/1995م، ص:41.

[3]- سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج2، دط، 1401هـ/1981م، ص:388،389.

4- نفسه، ص: 388.

5- ينظر: شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2006م، ص:171،172.

6- ينظر: نفسه، ص: 172.

7- نفسه ، ص:181.

[8]-محمد الهادي المطوي، شعرية عنوان كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، المجلد 28، العدد الأول، سبتمبر 1999، ص:456.

9- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي ، ص: 180.

[10]- نفسه، ص:173.

[11]- ينظر: نفسه، ص:129.

[12]- ناصر الموافي ، الرحلة في الأدب العربي ، ص:71

[-13] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، 184.

[14]- ناصر الموافي ، الرحلة في الأدب العربي ، ص71.

[15]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، ص185.

[16]- نفسه، ص186.

[17]- نفسه، ص186-187.

[18]- امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش، رحلة القطب ، ص69.

[19]- ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص:387-388.

[20]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، م س، ص184.

[21]- ناصر الموافي ، الرحلة في الأدب العربي، م س، ص71.

[22]- نفسه، ص: 42.

[23]- ينظر: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، رحلة القلصادي، م س، ص72.

[24]- نفسه، ص:83.

25- مسعود بقادي، قراءة في بعض قيم وأبعاد القصيدة المجازية للقطب أطفيش، أعمال ملتقى القطب أطفيش، قسم اللغة والأدب العربي، نوفمبر 2016م، جامعة غرداية ، ص:28.

[26]- امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش، رحلة القطب، ص:62.

27- نفسه، ص:62.

28- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، رحلة القلصادي، م س، ص:96.

[29]- ناصر الموافي ، الرحلة في الأدب العربي، م س، ص40.

[30]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، م س، ص:292.

[31]- ينظر: نفسه، ص:292.

[32]- عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص:66.

[33]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي(التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، ص:302.

[34]- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، رحلة القلصادي، م س، ص123.

[35]- نفسه، ص125.

[36]- ينظر: نفسه ، ص:92-93.

[37]- امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش، رحلة القطب ، م س، ص78

[38]- نفسه، ص70.

[39]- نفسه، ص69.